نوستالجيا
كريم سالم

كريم سالم – نوستالجيا

كريم سالم ، من مواليد ١٩٨٥ .
مصر الجديدة – محافظة القاهرة .
بكالوريوس الهندسة – مهندس كهرباء .

الإهداء ...

إلى جدي الذي علمني القراءة ، الذي بث في نفسي حب المعرفة ، الذي آمن بموهبتي وساعدني لتنميتها .
إلى كل ما قرأت وسأقرأ ، إلى مكتبي وغرفتي ، وما تراكمت فيه من كتب وأوراق .
لن أهدي أفراد عائلتي ، فهم ينتظرون مني الكثير ، ولن أوفيهم حقهم .
إلى "زحمة كُتَّاب" التي ترفع لها القبعة لمجهوداتها اللا محدودة في الوقوف بجانب صغار الكتاب ... لي الشرف أن أكون معهم .

obeikandl.com

يوم ميلادي

- أبي .. أبي ، استيقظ ، لقد نمت اليوم كثيرًا ، فالظهر أوشك على الأذان ...
- اتركيني يا بنيتي للحظات قليلة ، فإنني أشعر بالنعاس ...

ولكنها أكملت ما تفعله بفتحها للستائر ودخول أشعة الشمس القوية إلى غرفة النوم مما جعلني أشد الغطاء حولي في محاولة أخرى لتركي أنام مدة أطول ، ولكن محاولتي باءت بالفشل ، وهي تقول :

- هذا يكفي .

ورفعت الغطاء عني ثم جلست بجانبي وطبعت قبلة على خدي ، وأكملت المشهد بابتسامة على وجهها . استسلمت لها كالعادة ، ثم جلست على الفراش محاولًا طرد النوم من عيني ورسمت التعب والإرهاق على وجهي وأنا آخذها في حضني وأرد لها قبلتها بقبلة أخرى على وجهها ، ثم نظرت إليها مبتسمًا وسألتها :

- هل أعددتِ الإفطار ؟

فردت علي مسرعة وكأنها كانت تنتظر سؤالي لها :

obeikandl.com

- نعم ، جهزت لك كل ما تحبه من الجبن والفول وعصير البرتقال .

ثم أكملت وهي تشدني من يدي وتقول :

- هيا يا أبي انهض معي لكي آخذك إلى الحمام .

أمسكت يدها واستندت عليها محاولًا الوقوف ، ومددت يدي لآخذ منها العصا ، وأومأت برأسي بالإيجاب ، وكأني أقول لها أني قادر على السير بالعصا ، وشكرًا على المساعدة .

كم كانت تذكرني بأمها ، وجمالها الذي لفت انتباهي في أول مرة رأيتها في الجامعة ، وجلستها بجانب أصدقائها وهم يتحاورون ويضحكون ، واقترابي منها ، إلى أن جاء اليوم الموعود ، وقررت أن أبوح بحبي لها ، ما زلت أذكر احمرار وجهها ، لم يكن من السهل الإقدام على هذا القرار ، فرغم ثقتي وتوقعي أنها تبادلني نفس الشعور ، إلا أنها عندما ابتسمت وأدركت أنها تحبني ، ارتجت خلجات قلبي ، وأصبحت كالطائر الذي يشتاق إلى الحرية .. إلى الطيران ، وشعرت أن السموات أصبحت كالجانحات تحملني إليها ، وصوتي يغرد بالسعادة وينشر الفرحة .

ذهبت مع أبي وأمي إلى بيتهم ، وقابلت هناك أولى صدماتي عندما سألني والدها عن سكني ، وعملي ..

- كيف ستلبي مطالبها ؟ تحقق رغبتها ؟

ثم استكمـــل كلامه واعتـدل في جلستـــه ، وزادت في نبرته الحدة وهو يقول :

- انظر يا بني على مسكنها وملبسها ... كيف ستستطيع أن تجعلها في مكانة مثل تلك ؟ وأنت ما زلت طالبًا جامعيًا .

وبدأ في توجيه ضرباته القاضية في وجهي منهيًا الحديث في هذا الموضوع بمحاولة إبداء رأيه بأنه لم يرفضني لشخصي ولكن لأني ما زلت صغيرًا ، ودعاني إلى العودة مرة أخرى بعد انتهاء الدراسة ، وتحقيقي لهذه الشروط التي لن يتنازل عنها .

أحسست بأن العالم كله اسود من حولي ، وأن بقائي في الحياة ليس له معنى دونها ، ولكنها لم تتركني أبدًا ، وظلت بجانبي إلى أن أنهيت دراستي ، وشجعتني في عملي الجديد الذي كان يفوق طاقتي على التحمل ، وبحثها معي على المسكن المناسب لنبدأ فيه حياتنا ، ما زلت أذكر سعادتها في هذا اليوم ، ورأيت فرحتها على وجهها ؛ فاليوم حققت لها كل ما يريده والدها، وأثبتت أمام الجميع أنني أستحق حبها ، وأنني قادر على إسعدها .. آه يا حبيبتي ، كم يؤلمني فراقك ورحيلك عن دنيتي !

obeikandl.com

لاحظت ابنتي شرود ذهني فصاحت بصوت مرتفع في محاولة منها للفت الانتباه :

- لقد أعدت لك كل ما تحبه من فطور شهي ، أعلم أنك تحب طعام الإفطار البسيط .. جبن وفول وبعض من الطماطم .. ستحبه - إن شاء الله .

شكرتها على مجهودها الرائع وبدأنا في تناول الطعام ، وأثناء تناوله بدأت ابنتي في الكلام قائل :

- بعد انتهائنا وشرب الشاي سآخذك في نزهة صغيرة ، فالجو اليوم مشجع للنزول .

رددت عليها :

- لن أقدر على السير وصحتي لن تتحمل ...

قاطعتني مبتسمة :

- أنا سأكـون معك بجـوارك ، سنسيــر ببطء ، وسنجلس قليلًا لنستمتع بأشعة الشمس ، لنتناول القهوة .

فقلت لها محاولًا تغيير رأيها :

- يومًا آخر - إن شاء الله .

أكملت حديثها وهي تلم الأطباق من المائدة ، وبلهجة يشوبها بعض الحزم :

obeikandl.com

- لقد وعدتني الأسبوع الماضي ، ثم أنه يجب علينا الاستماع لأمر الطبيب ، فقد أمر بالسير ، وقال إنه خير علاج لك .

فنظرت إليها مبتسمًا وقلت :

- من أين جئت بهذا العناد ؟! ألن أقدر أبدًا عليكِ ، وعلى عدم الاستماع إليكِ !

فقالت ضاحكة :

- يا أبي، أتذكر عندما كنت أمرض وأرفض شرب الدواء ماذا كنت تفعل ؟ ... كنت تأتي إلي به وتقنعني بأنه هو الحل ويجب علي الاستماع إليك حتى أشفى وأستطيع الذهب إلى المدرسة .
- يا لها من أيام سعيدة ، ما زلت أذكر أيام ذهابك أنت وأخيك إلى المدرسة ، كنت أستيقظ مبكرًا مع أمك لتحضير سندويتشات الإفطار لتأخذوها معكم ، وننتظر حافلتكم ، بعدها كنت أصطحب أمك إلى عملها ، وكنا نناقش أمور الحيـــاة في العربة ... كم أشتاق لهذه الأيـام . من يصدق أن هذه اللحظات التي كنا نطلق عليها الروتين اليومي ستصبح أجمل الذكريات التي نتمنى رجوعنا لها !
- أجل يا أبي ، إنها أجمل الذكريات ...

obeikandl.com

ثم أكملت كلامها وهي تعلن انتصارها :

- لقد أعددت لك ملابسك ، وأنا سأذهب أيضًا لارتداء ملابسي .

رأيتها تنظر إلى الأرض وبدأت تتهته في الكلام وازداد وجهها احمرارا ، فعرفت أنها تريد شيئًا ولكنها مترددة في السؤال .. علت ملامحي ابتسامة وكأني أعلن أنني أعرف ما يدور بفكرها ، فأسرعت قائلًا حتى لا أطيل عليها الانتظار :

- أين خطيبك ؟ فاليوم عطلته ، من الممكن أن يأتي معنا ، فلم أره منذ فترة .

ارتسمت الفرحة على وجهها ، وبدأ شعورها بالخجل يتلاشى وهي تقول :

- هو أيضا سيكون سعيدًا برؤيتك ... سأذهب للاتصال به وأرتب نفسي للنزول ، على أن تذهب أنت أيضًا ، فالجو اليوم دافئ .

فأسرعت تحمل هاتفها وبدأت في الاتصال بخطيبها وهي تغلق باب غرفتها . ظللت لبعض الثواني أنظر إلى غرفتها ، وبدأت بالوقوف مستندًا على عصاي ، ذاهبًا إلى غرفتي ، ومرددا والابتسامة تملأ وجهي :

- يا للنساء ... !!

♣♣♣

obeikandl.com

كانت الشمس ساطعة مع نسمة هواء خفيفة تضفي على النفس كثيرًا من الراحة والبهجة ، وقد ساعدنا هذا كثيرًا في مواصلة السير دون الشعور بتعب أو إجهاد ، كنت أسير بجانب ابنتي وهي تمسك بيدي وكأنها ما زلت طفلة صغيرة تريد أن تلعب وتجري في الفضاء ، فنظرت إليها وبدأت الحديث معها قائلًا :

- أتذكرين عندما كنت طفلة صغيرة ، كنت تريدين مني أن أعلمك ركوب الدراجة ؟!

بدا على وجهها علامات السعادة والرجوع بالذاكرة إلى الوراء وهي تقول :

- نعم يا أبي .. أذكر ، وأذكر أيضًا انتظاري ليوم الإجازة حتى تأخذني إلى الشارع الصغير لأظل ممسكة بيديك وأنا أنظر إلى الأرض وأرجو منك عدم تركي أبدًا ، وكنت تطمئنني بعدم تركي .

فرددت عليها وقلبي يهتز من السعادة :

- نعم أتذكر ، وكنت أحاول أن أقول لكِ أن لا تنظري إلى الأرض وانظري أمامك ، فكنتِ تومئين برأسك بالموافقة ولكنك لا تفعلين شيئًا .

ظللنا نضحك سويًا ونحن نتذكر ما مضى من ذكريات، وها قد جاء خطيبها من بعيد وقد تزين بأجمل الملابس، كم يذكرني بنفسي أيام خطبتي عندما أخرج مع حبيبتي،

obeikandl.com

كنت أحاول أن أتزين بأجمل الملابس وأبحث في الهدية عن كل ما يثير إعجابها . ما زلت أتذكر أول هدية قدمتها إليها بعد تسلمي لوظيفتي وسعادتها بها .. نعم يا حبيبتي ، كم أشتاق إليكِ ، كم أشعر بالوحدة دونك ، كيف يكون الزمن هو الحاجز بيننا ؟!

لقد مر على رحيلك أعوام ، لم أنساكِ أبدًا ، ولن أنساكِ ، كم تمنيت الموت مرارًا لرؤيتك ، كم من الأيام مرت علي دونك ، وتحملتها .. كم من مواقف تمنيت فيها وجودك جواري ، حاولت أن أكون مكانك أتساءل ماذا كنتِ ستفعلين .

لم أنتبه إلى يد خطيب ابنتي إلا وهي تنادي علي للمرة الثالثة ، فانتفضت من المفاجأة ، مما جعلهم ينظرون إلي متسائلين :

- أبخير أنت ؟

فرددت عليهم مطمئنًا :

- معذرة ، لقد سرحت بخيالي إلي زمن بعيد .

ونظرت إليه وأنا أكمل حديثي مبتسمًا :

- فأنت تذكرني بنفسي وأنا في شبابي .

ونظرت إلي ابنتي فرأيتها يكسو وجهها علامات القلق ، وكأنها تحاول سؤالي .. أهي أمي مرة أخرى ؟

مما جعلني أتحاشى النظر إلى وجهها .. وحاولت تغيير الحوار مسرعًا :

- أين سنذهب لشرب القهوة ؟ فقد بدأت أشعر بالتعب ...

مرت أكثر من ثلاث ساعات على جلوسنا ... تركتهم يتكلمون وذهبت لشراء بعض الأشياء التي أحتاجها للمنزل ، ثم عدت إليهم ، وتركتهم مرة ثانية وثالثة ، لا أعلم كف يطيقون الجلوس والتحدث كل هذا الوقت ، لا أعرف فيما يتحدثون أو ماذا يقولون .

الآن أنا لا أقدر على البقاء ، فقد بدأنا في أوائل الليل، وإذا تركتهم يتسامرون لن يتحرك أحد من مكانه ، وسنظل في هذا المكان إلى آخر العمر .

حاولت مرارًا وتكررًا أن أوحي لهم بالتعب لعلهم يلاحظون ويتفهمون ما أريد ، ولكنهم كانوا ينظرون إلي وتصبهم حالة من الضحك المتواصل ، ثم ينظرون إلى هواتفهم المحمولة ويشرعون في إرسال الرسائل لآخرين ، لن أفهم أبدًا هذه التكنولوجيا المعقدة التي أسرعت من رتم الحياة ، كيف يجد الشباب فيها من اللذة ؟!

استسلمت لأفعالهم حيث لا أقدر على فعل شيء ، وفجأة وبعد مرور أكثر من ساعة بعد وصول الليل ، قرروا القيام والذهاب إلى البيت .

سعادتي بالذهاب إلى البيت جعلتني أغفل عن سؤالهم سبب هذا التغيير المفاجئ ، أو خوفي من تبديل رأيهم جعلني لا أسأل .

ساعدتني ابنتي على النهوض وذهب خطيبها مسرعًا ليأتي بالسيارة وانطلقنا إلى البيت . لم تمضِ دقائق معدودة حتى وصلنا لأنزل من السيارة ، شكرته على توصيلنا ثم دعوته للصعود وتناول العشاء من يد خطيبته ، فلم يتوان للحظه للاعتذار ، بل أسرع قائلًا والفرحة تملأ وجهه وكأنه ينتظر هذه الدعوة :

- سأركن السيارة في مكان جيد ثم آتي إليكم ...

انتظرت أنا وابنتي لحظات قليلة إلي أن جاء ، ثم صعدنا إلى باب المنزل ، سألتني ابنتي إذا كان معي مفتاح لأنها نسيت مفتاحها كالعادة .. فتحت الباب وكان الظلام الدامس يملأ المكان ، فمددت يدي لأضغطت زر الإضاءة لكن ما حدث بعد ذلك كان مفاجأة بكل المقاييس ، فجميع أنوار البيت أضاءت مرة واحدة ، مما جعلني أغمض عيني من شدة الإضاءة ، وسمعت أصوات كثيرة تأتي من دخل المنزل وهم يرددون :

- مفاجأة !!

وانهالت علي التهنئة بعيد ميلادي ... نعم ، اليوم يوم ميلادي ، لقد نسيته .

بدأت أفتح عيني ببطء حتى تتعود على الحضور ، فرأيت أناس كثيرين أعرفهم ...
هذا ابني الكبير يحمل ابنته .. ما زلت أذكر يوم ولادته، يومها أيقظتني زوجتي قبل الفجر وقد تبللت عرقًا من شدة الألم وقد كان الصراخ يشتد بها ، أمسكت بيدي والآهات تخرج منها وظلت تردد :

- أشعر به يخرج ، لا أقدر على تحمل ، خبطاته بداخلي تزداد ... فهو قادم .

وبدأت تنتابها حالة من الهستيريا ، وامتزجت المشاعر داخلي ، هل أفرح بقدوم طفلي الحبيب ؟ أم أرتعد خوفًا من شدة الألم الذي أراه على حبيبتي .. أسرعت بتبديل ملابسي وأمسكت يديها وأنا أحاول طمأنتها وأدعوها إلى التماسك إلى أن نصل إلى المستشفى .
وها قد وصلنا سريعًا ، وأخذها مني الأطباء ليقوموا بدورهم .. انتظرت طويلًا ، لا أعرف ماذا أفعل وقد تملكني التوتر وفقدت السيطرة على أعصابي ... وها هو يأتي ، أسمع صوت نحيبه معلنًا وصوله إلى الدنيا بسلام ، وبعد دقائق قليلة جاءت الممرضة لتبشرني بقدومه ، وسمحت لي برؤيته لأول مرة .... كم هو جميل ، كم هو صغير !
كم هائل من مشاعر الأبوة نزل علي فجأة ليعلن للعالم أجمعه أنني أصبحت والد هذا الطفل وأنني أصبحت أبًا.

obeikandl.com

ازدادت سعادتي وأنا أرى أقاربي حولي يهنئونني بميلادي ، فلم أجد من الكلمات ما يمكنها وصف سعادتي ... وها هو أخي مع زوجته جاؤوا أيضًا للاحتفال معي ليذكرني بأسعد أيام حياتي ، فهو أبدًا لم يكن أخي بل كان صديقي ، ورغم أنه يصغرني بعامين فإننا كنا نلعب سويًا الكرة ، ونتنزه سويًا ، ونستذكر دروسنا في بيت واحد ، ونتشارك في غرفة نوم واحدة وملابس واحدة ، وطعام واحد أيضًا .
ومن بعيد رأيت الأصدقاء في هذه الحفلة الصغيرة ، أو ما تبقى منهم ، فكثير منهم فارق الحياة ، وقليل من تبقى وظل معي على اتصال .

آه من الذكريات ، فاليوم تعلمت أسمى معاني الحياة ، وعرفت أن اللحظات السعيدة هي كل ما أملك ، بل هي كنزي الصغير ، تعلمت أن لا أندم على شيء فعلته قديمًا مهما كان خطأ أو صبيانيًا ، وعرفت أيضًا أن كل محاولاتي للم الأسرة لم تضع هباءً ، وأنني الآن قد أكملت رسالتي في الحياة .

ها أنا ذاهب مع أحبتي للاحتفال وإطفاء شمعتي ، فهذا يوم ميلادي ، يوم ميلادي التسعون .

obeikandl.com

حنين

لم أصدق صدمتي ، وأنا أرى طفلتي . نعم ، هي طفلتي رغم حداثة سنها ، رغم ظهور مفاتنها التي أخذتها من أمها ، وانسياب شعرها على خدها وهي تبرر مكالمتها لصديقتها ، كانت تعلم عدم تصديقي لها ولكنها حاولت استمالة عواطفي نحوها ، وتوسلها بابتسامة ترجو عدم تكرار سؤالي لها بعد ملاحظتي جلوسها وحدها وشرود ذهنها .

توقفت أمام باب غرفتها وأنا لا أعلم ماذا أقول لها ، هل أصارحها بكذبها أم أترك غضبي نحوها يعلو ويعلو ؟!

نظرتها إليَّ جعلتني قفزت بذاكرتي إلى الوراء نحو طفولتي .. إلى أميال بعيده مع أسرتي .. إلى أكبر تغير في مسيرتي .

تذكرت قرار أبي بالرجوع إلى الوطن وركوب طائرتي التي كانت آخر رحلاتي نحو بيتي الجديد في القاهرة ، لن أنسى أبدًا أول أيام دراستي ، رهبتي من ركوب الحافلة ، وثقل حقيبتي التي لا أعلم كيف تحملتها ، ودخولي الفصل الجديد ، وبحثي عن مكان أجلس فيه ،

obeikandl.com

فرأيتها ... حبيبتي ... عرفتها من دقات قلبي لها ، من عيني التي لم ترَ جمالًا مثلها ، من خطوات أرجلي وهي تأخذني نحوها .

جلست جوارها ، لا أعرف كيف فعلتها ، فلم أكن أتخيل جرأتي نحوها ، وسؤالي عن اسمها ، فرأيت دهشتها التي ظهرت في ابتسامتها ، لكن أحلامي تبددت عندما أسرعت المعلمة بإعلامي بأنه ليس من قوانينها جلوسي بجوارها والحديث أثناء وجودها ، وفصل الطلاب عن الطالبات هو أسلوبها .
سمعت ضحكات الطلاب وهمسات باقي الطالبات ، لا أعرف كيف لم ينتَبني الخجل وأنا الخجول ، أنا الذي يخاف الحديث ويتهته لسانه عند التحدث إلى الصديق ، وشعرت بالسعادة ، بل أكثر من ذلك بالقوة والجرأة ، هل بسبب أنني قد تجاوزت المدى ؟ محتمل !
نظرت حولي وجلست بأقرب مكان لأكون بجوارها ، وظللت أنظر نحوها وأنا لا أعرف اسمها .

تذكرت أول محادثة بيننا وأنا اري الحياء يملأ وجهها ، وأول سلامي وأنا أرجو تكرار لقائنا ، وابتسامتها وهروبها من سؤالي لها ، فالآن أدركت حبها ، أدركت أن الوصول إلى قلبها هو هدفي ، الحديث معها هو

سعادتي ، الخروج معها هو غايتي ، وبقائي معها هو أمنيتي .
تذكرت أول زهرة قطفتها من الحديقة ، أول محاولاتي الشعرية في وصفها ، أول ألحاني الموسيقية في عزف سحرها ، أول محاولاتي الغنائية في حبي لها ، وأول صورة لنا .. لن أنسى هذه الأيام الخوالي بيننا ، فالحب الأول هو أسمى معاني النقاء ، وأول تجارب الحياة ، وأول الأحزان التي لا أعلم سرها ، فذاكرتي لن تحمل إلا الأوقات السعيدة واللحظات المجيدة .

تذكرت كل هذا في لحظات ، بل في أقل وأنا ما زلت أرى الابتسامة تملأ طفلتي ، حاولت البوح لها بهذه الذكريات لكن عروبتي استوقفتني ، دمائي الشرقية منعتي من الحديث معها ، فتوجهت إليها برفق وأنا أبعث إليها بابتسامة لطمأنتها ، وطبعت قبلة دافئة على خدها ثم أغلقت الباب الخلفي وتركتها لتعيش أحلى لحظات حياتها مع حبيبها ، لتخوض أولى تجارب الحياة وحدها ، لتختار اللحظات التي تريد أن تحتفظ بها لنفسها .. لتتذكر أول حب لها .. !